

عصر الطوائف

كيف بدأ عصر الطوائف :

خلال هذه الحوادث كلها وقف بقية أهل الأندلس ينظرون إلى ما تسفر عنه الأمور ، وكان يتولى معظم ولايات الأندلس نفر من رجال بني عامر أو من أعضاء الحزب العامري إذا استقام هذا التعبير ، وفي هذه الظروف قد انعدمت السلطة المركزية تقريباً ، اضطر أولئك الولاة إلى الانفراد بولاياتهم ريثما تنجلي الأمور في قرطبة ، ولكن الأمور لم تنجل عن نتيجة واضحة ، وتعاقب على عرش بني أمية عدد من الأمويين الصغار لم يحكم معظمهم إلا فترات قصيرة ، وكان القرطبيون يحاولون أن يؤيدوا أولئك الخلفاء بزعامة رئيسهم أبي الحزم بن جهور ، وأخيراً ، وعندما يئس القرطبيون من العثور على شخصية أموية تستطيع النهوض بالمسؤولية اجتمع كبار قرطبة في ذى القعدة ٤٢٢هـ / نوفمبر ١٠٣١م وتشاوروا في الأمر ثم استقر رأيهم على إلغاء الخلافة القرطبية وعزلوا آخر بني أمية وهو هشام الثالث الملقب بالمعتد ، وقرروا إخراجه من بلدهم في ١٢ ذى القعدة ٤٢٢هـ / ٣٠ نوفمبر ١٠٣١م وبذلك انتهت خلافة بني أمية الأندلسية ، وذهب الخليفة المعتد معزولاً إلى نواحي سرقسطة حيث انتهت حياته في خمول .

هذا القرار الذي اتخذته زعماء قرطبة برئاسة أبي الحزم بن جهور لا يوصف إلا بأنه كارثة ، لأن إلغاء الخلافة كان معناه إلغاء رمز الوحدة ، لأن عمال النواحي والأطراف وجدوا أنفسهم فجأة بدون خليفة ومضطرين إلى أن يتولوا بأنفسهم شؤون ولايتهم ، وهكذا تحول كل منهم إلى أمير في ناحيته ، وتلك هي النقطة التي لا يلاحظها الكثيرون وهي أن عمال النواحي في الأندلس لم يخرجوا على الطاعة ، ولم يستبد كل منهم بناحيته ، ولكن الذي حدث هو أن القرطبيين ألغوا الخلافة ، فلم يكن للعمال مفرٌ من أن يتحولوا إلى أمراء نواحٍ ، وبهذا العمل الذي يخلو من كل شعور بالمسؤولية قضى أبو الحزم بن جهور وأنصاره على رمز الوحدة في البلاد وهو أمر لم يحدث قط في التاريخ ، لأن خلافة بني العباس مثلاً - رغماً عن ضعفها - ظلت قائمة رمزاً لوحدة المسلمين في المشرق ، وكان ذلك ذا

فائدة عظيمة ، لأن الأمر لم يَحُلْ من زعماء ذوى حمية وإخلاص يدخلون في طاعة الخلافة ويشدون أزرها وتنتعش الخلافة من جديد كما حدث في عهد السلاجقة .

هكذا ظهر أمراء النواحي الذين نسميهم بملوك الطوائف ، وهم لم يكونوا ملوكًا ولا ملوك طوائف ، وإنما هم كانوا عمالاً على النواحي استبدوا بالأمر كل في ناحيته ، على النحو الذى وصفناه ، وهم لم يتخذوا ألقاباً ملكية ولا سلطانية ، وإنما اتخذوا تسميات مثل المعتضد والمعتمد والمستعين ، ولم يكونوا يتزعمون طوائف من سكان الأندلس كما يظن البعض ، فلم تكن هناك طائفة عربية أندلسية يتزعمها بنو عبّاد ، أو طائفة بربرية يتزعمها رجل مثل المأمون بن زنون في طليطلة ، ولا طائفة صقلبية في شرق الأندلس يتزعمها الصقالبة العامريون ، إنما هم كانوا رؤساء النواحي استبد كل منهم بناحيته وأراد أن يظهر بمظهر الأمير أو السلطان ، ولم يوفق واحد منهم في ذلك وجرت الحروب بينهم وطمع فيهم النصارى فأخذوا يفرضون عليهم الإتاوات لأن أحداً منهم لم يكن لديه جيش يستطيع به دفع النصارى عن بلاده .

وينقسم عصر الطوائف تاريخياً إلى ثلاث فترات :

الفترة الأولى : هى فترة الانتظار والترقب فيما بين سقوط العامريين سنة ١٠٠٩م وإلغاء الخلافة القرطبية سنة ١٠٣١م وخلال هذه الفترة جرت الحروب التى ذكرناها بين الأندلسيين وجند العامريين من البربر ، و تعاقب الخلفاء واحداً فى إثر واحد وتخزبت قرطبة ومدينة الزهراء وكذلك مدينة الزاهرة التى بناها المنصور محمد بن أبى عامر ، ووقف عمال النواحي يرقبون الأمور وينتظرون أن يستقر الأمر عند واحد تعترف به الأندلس كلها لتسير الأمور فى مجراها من جديد ، وخلال هذه الفترة القصيرة تدهورت أمور الأندلس كله وتداعت القواعد المتينة التى وضعها أمراء بنى أمية وخلفاؤهم وخاصة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وتنفس مخنق ممالك النصارى فى الشمال وطمعوا فى بلاد المسلمين وقد تحدّثنا عن هذه الفترة .

والفترة الثانية : وتمتد من سنة ١٠٣١ - ١٠٨٥م وهى سنة سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون .

وذلك أن أمراء الطوائف دخلوا في حروب طويلة بعضهم مع بعض ، وكل منهم يريد أن يوسع ناحيته على حساب الآخرين مستعيناً في ذلك بقوات من النصارى يدفع لهم إتاوة حاسباً أنه يقيم بذلك ملكاً لنفسه على حساب إخوانه المسلمين ، وتلك هي فترة الطوائف حقاً التي انقسم الأندلس فيها إلى وحدات سياسية كثيرة كلها صغيرة وكلها عاجزة عن القيام بأمور نفسها ، وتدهورت الأمور في الأندلس كلها خلال هذه الفترة ، وأهم أمراء الطوائف الذين ظهوروا في هذه الفترة هم :

بنو عبّاد أصحاب إشبيلية : ومؤسس دولتهم محمد بن إسماعيل بن عبّاد الذى ينتسب إلى لخم ، وكان من رجال الحزب العامرى ، فابن أبى عامر هو الذى ولّاه القضاء على إشبيلية ، ومنحه سلطات واسعة ، وعند قيام الفتنة كان أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عبّاد قاضياً على إشبيلية ، فقدمه أهلها للرياسة ، وعندما توفى إسماعيل قام بالأمر بعده ابنه محمد بن إسماعيل بن عبّاد واصطنعه القاسم ابن حمود وأقامه والياً على إشبيلية ، فشرهت نفسه إلى السلطان ، وكان رجلاً واسع الحيلة بعيد الطموح وإن كان مستواه الأخلاقى بعيداً جداً عما ينبغى للقضاة . وما كادت دولة الحموديين تنتهى حتى استبد بالأمر وتلقب بالمعتضد وأعلن لفترة قصيرة الولاء لهشام المؤيد ، وفى النهاية استبد بالأمر ، وخلفه ابنه إسماعيل بن محمد بن عبّاد الذى غدر بيحى بن على بن حمود مولى نعمته سنة ٤٢٧ هـ . وإسماعيل هذا هو الذى انتقل بالبیت العبادى الى مظاهر الأمراء ، فاتخذ القصور والجند ، وحاول أن يضم إلى إمارته كل ما استطاع من البلاد الصغيرة إلى جواره وخاصة إمارات البربر الصغيرة مثل قرمونة وأسكنه قرب إشبيلية ، ووقعت الحرب بين أبى القاسم إسماعيل بن عبّاد وجيرانه وخاصة بنى الأفطس أصحاب بطليوس . وقد استعان كل من ابن الأفطس وابن عبّاد بالنصارى واستقر الأمر فى النهاية إلى شبه هدنة بينهما ، وفى سنة ٤٣٣ هـ صار الأمر فى إشبيلية إلى أبى عمر عبّاد بن إسماعيل بن عبّاد ، وهو الذى تلقب بالمعتضد ووسع إمارته حتى شملت معظم حوض الوادى الكبير وما يليه جنوباً وهادنه أهل قرطبة ، وقد اتخذ هذا الرجل الجند الكثير ، ولكنه لم يستطع أن يحقق وحدة الأندلس كما كان يقول ، خاصة وقد اشتدت الحروب بينه وبين المخضر بن الأفطس صاحب بطليوس ، وقد استمرت الحروب بين بنى الأفطس وبين بنى

عبّاد ، وطمع ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون في بلاد المسلمين . وهذا المعتضد بن عبّاد هو الذى اشتهر أمره في بلاد الأندلس فجعل لنفسه بلاطاً وأحاط نفسه بالشعراء وكان هو نفسه شاعراً ، وهو والد المعتمد بن عباد الشاعر المشهور . وسنتحدث عنه . وقد حاول سنة ٤٥٠ هـ أن يستولى على قرطبة ولكنه لم يستطع إلا بعد نهاية بنى جهور حوالى سنة ٤٥٨ هـ .

ثم خلفه ابنه المعتمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد الذى تلقّب بالمعتمد واشتهر أمره بالشعر والشعراء ، وفي أيامه بلغت دولة بنى عبّاد ذروتها في القوة والشهرة ، فقد تمكن المعتمد من ضم قرطبة ومالقة ومرسية ، واستصفى كل إمارات البربر الصغيرة جنوبى الوادى الكبير ، وضم إلى إمارته جزءاً كبيراً من غرب الأندلس ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أمل الوحدة لأنه كان إلى جانب اشتهاره بالشعر رجلاً فاسداً ينفق معظم وقته في الشراب محيطاً نفسه بالشعراء وأكبرهم أبو بكر بن عمار ، وسنتحدث عن ذلك في نهاية كلامنا عن عصر الطوائف ، وقد انتهت إمارة بنى عباد على يد المرابطين فقد عزله يوسف بن تاشفين عند عبوره الثالث إلى الأندلس ، ونفاه إلى أغمات حيث قضى بقية أيامه في قول الشعر، وشعره الذى قاله في هذه الفترة هو أجمل شعر قاله في حياته .

دولة بنى ذى النون في طليطلة :

بنو ذى النون أسرة بربرية الأصل قديمة في الأندلس ، وترجع أخبارها عندنا إلى أيام الإمارة ، فقد تجمعت أعداد من بربر الهواريين عند بلدة تسمى شنتمرية قرب طليطلة ، وهناك قامت لهم عزوة وقام لهم عدد ، وتحولوا إلى أندلسيين من أصل مغربى وتزاوجوا إلى الناس وأصهروا إليهم ونشأت أجيالهم أندلسية .

وكان الأمراء وخاصة في عهد الأمير عبد الله ، إذا وجدوا أسرة من هذا الطراز ذات قوة وعدد ، في ناحية من النواحي تتطلع إلى السلطان استجابوا لطلب رؤسائها في الإسجال لهم على بلدهم أى إعطائهم سِجلاً يخول لهم حكم منطقتهم ، إلى جانب العامل المولى من قبل أمير قرطبة وجباية المال والاحتفاظ ببعضه في مقابل تقديم خدمة عسكرية للإمارة في الصوائف ، أو عندما تطلب الإمارة ذلك . وكان ذلك نوعاً من الإقطاع شبيهاً بالإقطاع الغربى الذى ساد أوربا في العصور

الوسطى مع فارق ظاهر ، وهو أن الإقطاع الغربي كان يُعطى المُقَطَّعَ السلطانَ على الأرض والناس ، أى أن المُقَطَّعَ ويسمى في المصطلح الغربي بالفصل كان يصبح سيد أرض الناحية وأهلها ، أما في الإقطاع الإسلامى ، فالإقطاع إقطاع الأرض وحدها وما فيها من موارد الدخل ، مثل جسر يعبر عليه الناس أو نهز يستقون منه أو موضع يقيمون فيه سوقهم ، أما الناس فكانوا يظنون رعية الإمام في قرطبة ولا سلطان للمقطع عليهم .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر رأينا أن بيت زنون ، وهكذا كان يسمّى في الصيغة البربرية ، حاول أن يلتوى على الناصر ولكن الناصر أجبرهم على الطاعة وقصّ من أطراف قوتهم ، وكذلك المنصور محمد بن أبى عامر الذى أرغمهم على القتال في جيوشه وأرغمهم كذلك على دفع إتاواتٍ ماليةٍ منتظمةٍ لمعاونته فيما كان يقوم به من حملات على بلاد النصارى . وقد دخل بنو زنون - الذين عربّوا اسمهم إلى ذى النون - في جملة الحزب العامرى وأصبحوا من رجال حاكم قرطبة المستبد بأمره .

وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم في الشمال ، ولا تنتهى إلا قرب مجرى الوادى الكبير في أحواز بلد يسمى « قبذة » . أما من الشرق فكانت طليطلة تبدأ عند « فونكة » ولا تنتهى إلا عند أحواز ما يعرف اليوم بالبرتغال . فكانت بذلك تكون نحو خمس مساحة الأندلس الإسلامى .

وعندما قامت الفتنة سنة ١٠٠٩م كان يتولى أمر شنتمرية رجل في بيت ذى النون يسمى يحيى ، فاستدعاه أهل طليطلة لكى يستقوا به على نصارى الشمال فأصبحت ولاية طليطلة من أملاك بنى ذى النون ، وعندما زالت الخلافة سنة ١٠٣١م اتخذ يحيى بن ذى النون لقب المأمون ، وأخذ لنفسه ظاهر الملكية الذى اتخذه أمراء الطوائف في ذلك العصر ، ولكن لم تكن له قوة عسكرية كافية لتذود عن بلاده ، وكان هو يحسب أنه إذا صانع ملوك النصارى المجاورين له استطاع أن يعيش معهم في سلام . وفي الحق كان ذلك يبدو ممكناً في ذلك الحين ، لأن الممالك النصرانية المجاورة له كانت من الصغر والضعف بحيث لا يخشى خطرهما ، وخاصة بعد ما كان من ضعفها على يد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور محمد بن أبى عامر ، فكانت تقوم إلى غربى طليطلة إمارة

صغيرة هي كونتينة قشتالة ، وقاعدتها برغش ، وكان يحكمها أكناد ضعاف تابعون للملوك ليون ، وقد حدث في أول قيام الفتنة أن ملك ليون توفى وخلفه أبنائه فتحاربوا فيما بينهم وانتهى الأمر إلى واحد منهم يسمى سانشو فطرد أخاه ألفونسو ونفاه إلى طليطلة ، فأقام ضيفاً على المأمون ذى النون سنوات طويلة عرف فيها أحوال البلد وأدرك الحقيقة الكبيرة ، وهي أن طليطلة كلها لا تملك خمسمائة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها إذا أمكنته الفرصة من ذلك .

وحدث بعد ذلك أن قُتل أخوه سانشو واستدعاه النبلاء وولّوه ملكاً ، فأصبح يسمى ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب ألفونسو السادس ، فلم يكد يستقر على العرش حتى بدأ يمهد للاستيلاء على طليطلة ، وفي سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م توفى المأمون ذو النون ، وخلفه حفيد له في غاية الضعف والقدرة السياسية والعسكرية يُسمى يحيى الذى تلقب بالقادر ، وفي أيامه استقلت بلنسية عن طليطلة ، وكانت من تابعها ، ونشط ألفونسو السادس في تحقيق حلمه بالاستيلاء على طليطلة ، فعرض على المأمون ذى النون أن يحميه من جيرانه فوافق ، وبذلك أصبحت طليطلة حماية قشتالية ليونية ، وصارت تدفع الجزية للملك النصرانى ، وقد انتهز هذا الأخير فرصة خلاف بين أمير طليطلة الضعيف ورجال دولته ، وخاصة أسرة بنى الحديدى من الوزراء ودخل البلد بقوته سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٦م وبذلك دخلت طليطلة كلها بكل أراضيتها في مملكة ليون وقشتالة ، وعضواً عن ذلك عين ألفونسو السادس يحيى القادر بن ذى النون صاحب طليطلة بولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من الفرسان على رأسهم فارس يسمى البرهانس فدخل يحيى بن ذى النون بلنسية في حماية النصرانى .

المهم لدينا ، وهذه هي الحقيقة التي نريد أن ننصّ عليها هنا ، أن مملكة ليون التي كانت إلى الآن مملكة صغيرة فقيرة ، تتكون من أراضٍ زراعية ، تشمل أقاليم ليون وأشتريس وجليقية ، ليس فيها مدينة جديدة بالذكر إلا أبيت وليون وربما أشترقة ، أصبحت فجأة مملكة ضخمة تضاعفت مساحتها ثلاث مرات ودخل فيها من عظام المدن مثل طليطلة وشنترية ومدينة سالم وقلعة أيوب ودروقة ، هذا بالإضافة إلى ماكان منضمّاً إليها قبلاً من أراضى كونتينة قشتالة ، أى أن ألفونسو السادس انتقل فجأة من ملك صغير فقير إلى أكبر ملوك الجزيرة ،

وأصبح بقواته وأراضيه وأمواله الكثيرة صاحب الكلمة العليا في شبه الجزيرة ، فهو يملك أولاً مملكة ليون (تضم أشتريس وليون وجليقية) وكونتينة قشتالة ثم كل بلاد إمارة طليطلة ، وأصبح بهذا الوضع يستطيع أن يملئ إرادته على كل بلاد الأندلس فهو يجاورها جميعاً وفرسانه يغيرون على معظم إمارات الطوائف من أمثال إشبيلية وبطليوس وسهلة بنى رزيـن التي تسمى بشنتبرية الغرب وبلنسية .

وتلك هي الحقيقة الرئيسية التي تهم المعنى بدراسة تاريخ الأندلس الإسلامي فإن مصيبة عصر الطوائف ، لم تقتصر على تقسيم أراضي الأندلس إلى ولايات صغيرة مستضعفة ، بل إن هذه الأقسام المستضعفة كانت تجاور إمارات نصرانية عاشت دائماً تحت تهديد خلافة قرطبة ، وكانت حياتها في ذلك الحين شظفاً ، فما كادت ترى أراضي المسلمين إلى جوارها بدون حماية حتى انقضت عليها ووسّعت أراضيها على حسابها وتحولت من إمارات تكافح للبقاء إلى ممالك تعمل على توسيع رقعتها وتطمع في الاستيلاء على بقية شبه الجزيرة ، ولهذا فإن الفكرة الكبيرة التي يدير عليها الكثير من مؤرخي الإسبان تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى وهي فكرة الاسترداد . La Reconquista ترجع بالذات إلى ذلك العصر ، أما قبل ذلك فقد كان همّ الممالك النصرانية هو العيش في سلام من غزوات المسلمين .

أما القول بأن شراً ما كان في عصر الطوائف هو انقسام البلاد إلى إمارات صغيرة فذلك في ذاته ليس بخطر كبير ، ففي بلاد الإسلام في الشرق كانت البلاد وخاصة في الشام والعراق مقسّمةً في كثير من الأحيان إلى دويلات صغيرة ، ولكن لم يكن يهددها خطر سياسى دينى كبير كهذا ، ولهذا لم يكن للانقسام في ذاته تلك الخطورة به .

ولكى نوضح الأمر نقول إن خلفاء قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر والمستنصر والمنصور أى خلال العصر العاشر الميلادى الذهبى كانوا يفضل قوتهم ونشاطهم هم الذين يتصرفون في عروش الممالك النصرانية ، ففي أيام عبد الرحمن الناصر تدخل هذا الخليفة لى يعين غرسيه سانشو الأول ملكاً على بنبلونة سنة ٩٣٤م وكذلك تدخل عبد الرحمن لى يصبح سانجو الأول الملقب بالجلف (الكراسو) ملكاً على ليون سنة ٩٥٦م وفي أية مناسبة أبدى فيها ملوك

النصارى أية محاولة للخروج على طاعة قرطبة ، كان الخلفاء ورجالهم يبادرون بالقيام بحملات التأديب ، بل إن عبد الرحمن الناصر دخل بقواته بنبلونة ليؤدّب ملكها ، ودخل المنصور بقواته مدينة ليون عاصمة مملكة ليون ووصل بغاراته إلى جليقية ودخل « شنت ياقب » في وسط جليقية ، وقام ابنه عبد الملك المظفر بدخول برشلونة وكان ينوي إسكانها المسلمين وبالفعل نقل إليها الآلاف منهم وذلك قبل أن تقع كارثة طليطلة بأقل من نصف قرن ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن مدى التحول الكبير الذي أصاب الأندلس في عصر الطوائف .

إمارة بلنسية :

أشرنا فيما مضى إلى أن بلنسية كانت من توابع طليطلة ، وحقيقة الأمر في بلنسية التي تقع في شرق الأندلس وتعتبر إلى اليوم من أغنى أقاليمه ، صارت بعد سقوط الخلافة إلى نفر من صقالبة العامريين ، ثم بايع الصقالبة في حكمها حفيداً للمنصور بن أبي عامر يسمى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور سنة ٤١١هـ / ١٠٢١م وتلقّب بالمنصور وتوفي هذا سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦١م فخلفه ابنه عبد الملك الملقّب بالمظفر ، الذي تزوج ابنةً ليحيى المأمون بن ذى النون ، وانتهى الأمر بأن اتحدت الإماراتان وعهد المأمون في حكمها إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز الملقّب بابن روبش ، حتى إذا استولى ألفونسو السادس على طليطلة أخرج ابن روبش هذا وصار الأمر إلى يحيى القادر بن ذى النون في حماية فرسانه من النصارى الذين كان يرأسهم ألبرهانس الذى ذكرناه ، وهو ابن أخى فارس نصرانى آخر سيكون له دور سيئ في تاريخ المسلمين في الأندلس في ذلك العصر وهو رودريجو ديبيار الملقّب بالسيد القمبيطور Rodrigo de Vivar El Cid Campeador ويسميه العرب بصاحب الفحص .

كان هذا الرجل وأصله قشتالى يخدم ملوك ليون ، وكان يؤيد الملك سانشو أخا ألفونسو الذى ذكرناه ، فلما صار الأمر إلى ألفونسو الذى تلقّب بالسادس ، وأصبح يسمى ملك قشتالة وليون ، اختلف معه السيد فنفى إلى بلاط سرقسطة وعاش في وسط المسلمين وتكلم العربية واستخدمه بنو هود في أعمالهم العسكرية ومن هنا كسب لقب السيد وهو لقبٌ عربى ثم صالح الملك ألفونسو السادس بعد

استيلائه على طليطلة ثم انفصل عنه وكون جماعة من أهل الحرابة ، وهم المصطلح الإسلامى المقاتلون الذين يقطعون الطريق ، وتجمعت إليه أعداد منهم . ووجد أن بلنسية مملكة ضعيفة في حماية ألفونسو السادس ملك ليون ، وأخذ يُغير على أرضها وهى عاجزة عن الدفاع .

وشيثاً فشيئاً اشتد كَلْبُهُ عليها وطمعه فيها وحاصرها ، وازدادت أعداد الذعار والسُّراق في جيشه ، وكان أمر بلنسية في يد ذلك الضعيف المسمى يحيى القادر ، يعاونه قاضى البلد وهو أبو جعفر أحمد بن جحاف . وأخذ السيد يحاصرها كى يستولى عليها ويجعلها إمارة خاصة به ، وأخيراً تمكن بعد حصار طويل وحشى يصفه لنا مؤرخ عربى يسمى ابن علقمة في كتاب له يسمى « البيان الواضح عن الملم الفادح » حتى بلغ الجهد بالناس أن أكلوا كل ما لديهم وصار السيد يحرم عليهم الخروج من البلد . وازداد الأمر سوءاً حتى اضطر البلد إلى أن يفتح أبوابه للسيد القمبيطور سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فحكمها سنتين ، حكم فيها بالموت حرقاً على قاضيتها أبى جعفر أحمد بن جحاف ونفر من كبار أهلها وذلك في جمادى الأولى سنة ٤٨٨ ، فارتكب بذلك جريمة من أشنع ما ارتكب في ذلك العصر ، وفي ذلك الحين كان المرابطون قد دخلوا الأندلس وتمكنوا في النهاية من استعادة بلنسية على يد القائد عبد الله محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين ، فخرج إليها من جزيرة شكر ولم يستطع الدخول ، فتولى الأمر من بعده القائد أبو محمد بن مزدلى وهو ابن عم ليوسف بن تاشفين وعلى يده دخل المرابطون بلنسية سنة ٤٩٥هـ / ١٠٠٢م وأعادوها للإسلام بعد أن ذاق أهلها الويلات ، كما رأينا .

وإنما وقفنا عند كارثة بلنسية ومصيبة طليطلة لكى نوضح الحالة السيئة التى انتهت إليها أمر المسلمين في الأندلس بعد أن تفرقت وحدتهم ، وأصبح الأندلس الإسلامى فريسة سائغة أمام ملوك النصارى ، وقد تعودنا أن نلوم ملوك النصارى على ما أخذوا من أرض المسلمين ، ونعتقد أن هذا العرض الذى تقدمه يدعو إلى إعادة التفكير في ذلك الموضوع لأن الحياة على هذه الأرض صراع ، والدنيا كما يقول ابن جبير - لمن غلب .

إمارة سرقسطة :

قامت إمارة سرقسطة عند انتشار عقد الخلافة فيما كان يعرف بالثغر الاعلى

الاندلسى ، وهو الحوض الأدنى لنهر الأبرو وعاصمته سرقسطة وتتبعها بلاد كثيرة في تلك الناحية الجبلية الوعرة ، وتجاور في الشمال مملكة أرغون وفي الشمال الغربى مملكة نبرة ، وفي الشرق كونتينة برشلونة . وبعد سقوط طليطلة أصبحت تجاور مملكة ليون وقشتالة من الغرب والجنوب ، ومعنى ذلك أن هذه الإمارة أصبحت محاطة بملوك النصارى ، ولا طريق لها إلى بلاد المسلمين إلا عن طريق إمارة السهلة أو شنتمرية في الشرق وطرطونة قرب مصب نهر الأبرو.

وكان يحكم هذه الإمارة الواسعة أول الأمر التجيبيون وأصلهم من القوط ، ثم أسلموا واستعربوا وظلوا يحكمون هذه الإمارة ، وكان لهم فيها تاريخ طويل ، ثم صارت إلى نفر من رجالهم وهم بنو هود ، وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى (٤٣١ - ٤٣٨ هـ / ١٠٣١ - ١٠٤٦ م) وكان هذا الرجل كغيره من رجال الثغر الأعلى محارباً عفوياً يحيط به نفرٌ كبيرٌ من المقاتلين والفرسان ، وكان يسيطر على عواصم الثغر الأعلى الأربعة ، وهى سرقسطة وطليلطة ووشقة ولاردة ، ولم يكن على هذه الإمارة خوف حتى سقطت طليطلة ، فازداد الخطر عليها .

ذلك أن المستعين بن هود عندما توفى كان قد قسّم أملاكه بين أبنائه الخمسة وقام الصراع بينهم ، وكان الظاهر بينهم هو أبو جعفر أحمد الملقب بالمقتدر ، وفي أيامه دبّر ألفونسو السادس ، الذى كان يتولى ملك أرغون ويلقب بالمحارب حملة أراد بها أن يستولى على سرقسطة ففشل ، فمضى يحاول أن يستعين بملوك النصارى على النيل من بلاد المسلمين ، فجمع أعداداً كبيرة من النصارى من شمال إسبانيا وأوربا ولجأ إلى البابوية ، وتمكن الصليبيون الغربيون من مفاجأة بلد إسلامى صغير يسمى « بربشتر » على بعد ٦٠ كم شمال شرق سرقسطة ، وكان متطرفاً على حدود إمارة بريطانيا النصرانية ، وتمكن المهاجمون من التغلب عليها وكان يحكمها واحد من أولاد المستعين ، وهو حسام الدولة الملقب بالمظفر ، وكان نزولهم عليها في شعبان ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م حيث أنزلوا بأهلها مذبحاً بشعة بقيادة فارس نورماندى يسمى « دى مونتروى » ، وقد بارك البابا إسكندر الثالث كل ما عمله النصارى في ذلك البلد من أفاعيل شنيعة استنكرها حتى مؤرخو أوربا . وقد بلغ عدد من أسر من بنات المسلمين فيها وبيع في الأسواق خمسة آلاف

وكانت هذه الكارثة مما أثار الرعب في قلوب أهل الأندلس ، فأحسوا بأنهم لم يعودوا يعيشون في أمان أو حماية ، وإلى مثل هذه الكارثة و كارثة بلنسية التي ذكرناها يرجع بأس جمهور الأندلس في بلادهم وبدء هجرتهم وفقدانهم الثبات والبسالة ، وفي مثل هذه العصور عندما تفقد الأمة ثقفتها في نفسها لا يثبت رجالها للقتال ويملكهم الرعب فتتوالى الهزائم .

ولم تُسترجع بربشترو إلا في جمادى الأولى ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م على يد أحمد ابن هود الذي تلقب بالمتندر .

وقد ظل بنو هود يحكمون سرقسطة وثغرما أو ما بقى من ثغرما حتى حاول ألفونسو السادس الاستيلاء عليها ولكنه ارتد عنها سنة ٤٧٩ هـ عندما علم بنزول المرابطين الأندلس ، فتصدى لحرب أرغون أميرها أحمد المستعين واستطاع أن يرد ألفونسو المحارب قرب طليطلة عند بلدة بلتيرة في رجب ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، وفيها استشهد أبو جعفر أحمد المستعين وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب بعماد الدولة .

وبعد دخول المرابطين الأندلس دخل أمراء سرقسطة في طاعتهم ، ولكنهم لم يخلصوا لهم بل آثروا الدخول في طاعة ملوك أرغون ، وفي أواخر سنة ٥٠٣ هـ نجد أبا مروان عبد الملك عماد الدولة يتنازل عن بلدة طليطلة لألفونسو المحارب سنة ٥٠٣ هـ ويقطعه هذا بدلا منها أراضي في بلاد قشتالة ، وبعد وفاة عماد الدولة هذا في شعبان ٥٢٠ هـ خلفه أبنائه وآخرهم المستعين بالله الذي دخل في طاعة الملك النصراني ، وفي سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م دخل ألفونسو المحارب ملك أرغون سرقسطة ، وبذلك تضاعف حجم مملكته وانتقلت من طور إلى طور كما حدث بالنسبة لقشتالة وليون ، إذ أن مملكة أرغون صنعت نفسها على حساب إمارة سرقسطة التي كانت أول الأمر مملكة صغيرة في جبال البرانس فأصبحت الآن تمتد حتى تشمل وادي الأبرو الأدنى والأوسط وأصبحت بذلك من كبار الممالك النصرانية .

وبهذه المناسبة نقول إن أول الممالك النصرانية انتعاشاً وظهوراً نتيجة لانتشار عقد خلافة الأندلس كانت مملكة نبرة ، التي كانت تسمى إلى ذلك الحين مملكة بنبلونة ، وكانت مملكة صغيرة يسميها المسلمون أرض البشكونس ، وفي سنة

١٠٠٤م أي بعد موت المنصور بن أبي عامر بسنتين تولى أمر بنبلونة ملك هُمام يسمى سانشو الكبير (١٠٠٤ - ١٠٣٥ م) وقد تمكن هذا الرجل الذي تعلم في فرنسا من أن ينظم مملكته الصغيرة ويضاهي بها مملكة الفرنجة في فرنسا ، واتصل بالبابوية وأخذ من البابا تفويضاً بمغازاة المسلمين ، وصار يفكر في الاستيلاء على أراضٍ منهم ، وبدأ بتوحيد بعض الإمارات النصرانية القائمة في جبال البُرت ، مبتدئاً بإمارة « ريبا جورثا » (١٠١٨ - ١٠٢٥ م) ثم أدخل في طاعته كونت - قشتالة . وفي سنة ١٠٣٠م دخل في طاعته برمودو الثالث ملك ليون وكذلك كوند برشلونة بيرنجير رامون الأول الملقب بالمنحنى (الكوربو) .

ومعنى ذلك أن إمارة بنبلونة التي رأينا عبد الرحمن الناصر يدخلها ويقيم عليها قائده حاكماً أصبحت الآن وبعد زوال خلافة قرطبة مملكة يحسب لها حساب ، ولكن سيادة نبرة أو بنبلونة لم تستمر لأن ذلك الملك عندما توفى سنة ١٠٣٥ م كان قد قسّم أملاكه بين أولاده تحت وصاية ابنه الأكبر نمرسيه دنياخرة ١٠٣٥ - ١٠٥٤ م ولكن فرناندو الأول ملك ليون تمكّن من التخلص من سلطان نبرة وثار عليها بقية ملوك النصارى من أمثال فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة وراميرو الأول ملك أرغون فتقاسما أملاكها . وتوزعت أراضيها بين هاتين المملكتين . وقد رأينا كيف قامت على أكتاف المسلمين قوة مملكتى ليون وقشتالة في ناحية ، ومملكة أرغون من ناحية أخرى .

أى أننا الآن أمام مملكتين نصرانيتين قويتين تهدد أمن أراضى المسلمين الأولى ليون وقشتالة والثانية أرغون .

إمارة إشبيلية :

تعتبر دولة بنى عبّادٍ أصحاب إشبيلية أشهر دول الطوائف وإن لم تكن أقواها ، لأن أقواها بالفعل دولة بنى هود في الثغر الأعلى ، وأصل بنى عبّادٍ عربّ ، وقد استقروا أول الأمر في شلب في غرب الأندلس ، وترجع شهرتهم إلى جدهم إسماعيل بن عبّادٍ الذى عينه المنصور بن أبى عامر قاضياً على إشبيلية فبدأ تاريخهم في ذلك البلد ، لأنهم عند إلغاء الخلافة وجد إسماعيل بن عبّاد الفرصة

سائحة للاستبداد بأمر إشبيلية ، لأن أهلها قدموه للرياسة حتى تنجلي الفتنة ، وبعد وفاته خلفه ابنه أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وفي أيامه خلا الجو لبني عباد للرياسة بزوال الخلافة نهائياً ، ثم جاء بعده ابنه أبو عمر عباد بن محمد بن إسماعيل وهو الذي تلقب بالمعتضد .

وترجع قوة بني عباد إلى ما تميز به جدهم إسماعيل بن عباد من مهارة سياسية وقدرة على جمع المال ، وذكائه الذي جعله يسود أهل إشبيلية جميعاً ، وقد بايع أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد للقاسم بن حمود عندما ادعى الخلافة ، ولكن عندما طرد هذا الرجل من قرطبة وأراد اللجوء إلى إشبيلية ، أقفل المعتضد أبوابها وتكرّر له واجتمع مع اثنين من كبار البلد هما أبو عبد الله الزبيدي والوزير أبو محمد عبد الله بن ياريم ، ومضى الثلاثة يدبرون أمر البلد ، ابتداء من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ثم انفرد المعتضد بالأمر .

وقد دخل أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد في حروب طويلة مع جيرانه لكي يمد رقعة كورة إشبيلية ويجعلها تشمل غرب الأندلس كله وجنوبه ، واقترب في هذا السبيل جنائيات أخلاقية كبيرة ، وضرب لمعاصريه أسوأ المثل ، وهو المستول إلى حد كبير عن ذلك النوع من الأخلاقيات غير الإسلامية أو غير العربية الذي ساد ذلك العصر في الأندلس وأدى إلى ضياع أمر الإسلام والعروبة في الجزيرة .

ذلك أن أبا عمرَ عبّادَ بن محمد الملقب بالمعتضد ، لم يكن يقيم للأخلاقيات أى وزن ، وكان همه منصرفاً إلى جمع المال بأى طريق وتدبير المؤامرات لجيرانه والعدوان عليهم وخاصة من استضعفهم من أمثال البكرين أصحاب ولبة وشنتيش وبعض أمراء الطوائف من البربر في قرمونة وإستكة وتاكرنة وما إليه ، أما في مواجهة ملوك قشتالة فنجد أن ذلك الرجل يتهاقت ويؤدى الجزية ويعرض الطاعة دون أن يفكر في أن يدعو إخوانه من ملوك الطوائف المجاورين للوقوف صفاً واحداً أمام العدو وقتئذٍ ، فقد دفع الجزية لفرناندو الأول ملك ليون ثم أداها لألفونسو السادس ملك قشتالة وليون ورهبته رهبة شديدة ، وخاصة بعد أن استولى هذا على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وقد اشتهر أمر هذا الرجل بأشياء بشعة مثل حديقة الرؤوس ، وأصصها هي جماجم أعدائه ، بعد أن يقتلهم ، فيستعملها أصصاً للزهور وكان يتفاخر بذلك ، وقد تمكّن من توسيع رقعة بلاده على حساب المسلمين وتوفى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م .

وبمناسبة الإتاوات أو الجزى التى كان ملوك الطوائف هؤلاء يدفعونها إلى ملوك النصارى ليسترضوهم ويأمنوا جانبهم نقول : إن ملوك النصارى أولئك كانوا فى الحقيقة أضعف من ملوك الطوائف ، وبلادهم فى الغالب كانت أصغر ، فمملكة أرغون التى استولت فيما بعد على الثغر الأعلى من أصحابه بنى هود ، كانت مساحتها لا تزيد على ثلث إمارة الثغر الأعلى الأندلسية وكانت ثروتها أقل بكثير ، فلم يكن فيها من المدن ما يضاهاى مدن الثغر الأعلى مثل سرقسطة وتُطيلة ووشقة ولارده ، ومع ذلك فإننا نجد بن يهود يتخاضلون تخاضلاً مخجلاً ويؤدون الجزية إلى جارهم الأروغونى ، ولم تتحول أرغون إلى مملكة يحسب لها حساب إلا بعد أن استولت على الثغر الأعلى ، فزادت مساحتها ثلاث مرات وتضاعفت ثروتها عشرات المرات ، وكذلك الأمر مع مملكة ليون التى أصبحت مملكة قشتالة وليون ، لم تصبح مملكة لها قدر وقوة إلا بعد استيلائها على طليطلة .

ويستوقف النظر أن ملوك الطوائف هؤلاء ، كانوا يؤدون إلى ملوك النصارى مبالغ من الذهب لا تصدق ، فقد اتفق - مثلاً - المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مع سانشو ديبنان . Sancho de Penalen كان عليهم بمقتضاه أن يدفع كل شهر ١٠٦٩ قطعة من الذهب ، وكان يدفع فى نفس الوقت إتاوة أخرى إلى كونت أورخل غير محددة القدر ، فإذا قدرنا وزن القطعة الذهبية الإسلامية فى ذلك العصر بنحو جرامين ، فإن مجموع ما كان يدفعه صاحب سرقسطة ملك نبرة يزن عشرين كيلو جراماً من الذهب فى العام ، ولا بد أن نضيف إلى ذلك ما كان يدفعه إلى الكونت أورخيل ، وكان أصحاب إشبيلية يدفعون أكثر من ذلك المبلغ لملك قشتالة وليون ، ولا بد أن ملوك الطوائف الآخرين كانوا يدفعون ما يقارب هذه المقادير من الذهب ، ومعنى ذلك أن أمراء الطوائف كانوا يهبون بلادهم نهياً ليدفعوا للملك النصارى ، فكأنهم لم يكتفوا بإعطائهم الأراضى ، بل قدموا لهم أيضاً الأموال اللازمة للتعمير ، فالملك سانشو الكبير (١٠٠٤ - ١٠٣٥ م) وكونت برشلونة «رامون بَيرنجير» الأول (١٠٣٥ - ١٠٧٦ م) تقاضياً من أمراء المسلمين مقادير لا تُصدَّق من الذهب ، والملك فرناندو الأول ملك قشتالة (١٠٣٧ - ١٠٦٥ م) كان يتقاضى من طليطلة قبل أن تسقط ضعف ما كان يدفع أصحاب سرقسطة للملك نبرة ، ومعنى ذلك أن بلاد النصارى كانت تحصل دون عناء على

ذهب كثير ، مكن لهم من إنشاء المدن وتكوين الجيوش وتسليحها وتعمير الأراضى.

وكان ملوك إسبانيا النصرانية يتقاسمون هذه الأموال مع أشرف دولتهم ورجال الدين ، وكان هؤلاء يشترون الأراضى والعقارات بهذه الأموال ، وإلى هذا ترجع الثروات الضخمة التى تجمعت فى أيدي القلة الممتازة من أهل البلاد النصرانية ، وكان نتيجة ذلك أيضاً غنى البلاد النصرانية وفقر بلاد الإسلام ، وقد ذكرنا فيما سبق أن عبد الرحمن الناصر كان يدخر كل عام ثلث الجباية ، وعندما توفى عن خمسين سنة من الحكم ، خلف بيوت مالٍ مفعمة ، وكذلك خلفها المنصور ابن أبى عامر ، فأنفق ذلك كله هؤلاء السفهاء أمراء الطوائف بتصرفهم الذى يندر أن نجد له شبيهاً فى حوлийات الإسلام .

ويزيد الأمر غرابةً غروراً أولئك الأمراء ومحاولتهم الظهور بمظهر الملك مع بعدهم عن كل شارة من شاراته ، فالملظف بن الأقطس صاحب بطليوس عندما حدثه فى أمر توحيد بلاد المسلمين ، قال كلمةً كبيرةً استعظما أهل العصر ، وهى أنه لو جاءنى أبو بكر وعمر ونازعانى هذا الملك لقرعتُهما بالسيف ، ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يؤدى الجزية صاغراً لملك قشتالة .

والمعتمد بن عباد الذى خلف أباه المعتضد سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م يُعتبر نموذجاً لذلك التناقض الغريب فى أخلاق أولئك الناس ، فهو يؤدى الجزية إلى الملك النصرانى ، ويستولى الملك النصرانى منه على الحصون فلا يجرؤ على الاعتراض ، ولكنه يابى أن ينافسه صاحب بطليوس على حصنٍ صغيرٍ ويتحدث كأنه ملكٌ عظيمٌ ، وينفق بسخاءٍ كأنه يملك مال قارون ويحيط نفسه بهالةٍ من الشعراء يقولون فيه من الشعر ما لم يقله أحدٌ فى هارون الرشيد ، ويزعم أنه عربى أصيلاً ، ومع ذلك فهو يقتل وزيره ابن عمارة بيده ، فلا زال يضربه بالطربيزين (الفأس) حتى مات ، وابن عمارة هذا اسمه أبو بكر ، وهو من كبار شعراء عصر الطوائف ، رجلاً لا خلاق له ، بل لا يلمس الإنسان فى تصرفه أثاراً من أخلاق أو كرامةٍ ، فهو غادرٌ كاذبٌ ، ماجنٌ مسرفٌ فى الخمر ، وهو لم يتردد فى خيانة سيده وصاحبه المعتمد بن عباد ، لكى يصبح هو الآخر أميراً على بلده وهو مرسية ، ولم يزل يجرى فى غلوائه حتى قبض عليه عبداًه وباعاهُ ببيع الرقيق للمعتمد بن عباد ، فقتله

كما ذكرنا ، ومن غريب الأمر أن ذلك الرجل أبا بكر محمد بن عمّار كان يقول الشعر في سهولة يصعب تصوُّرها ، وإنه لو كان على شيء من الخلق لكان له شأن غير هذا الشأن .

وقد تمكّن بنو عبّاد من ضم قرطبة إلى إمارة إشبيلية ، وقضوا بذلك على دولة بنى جهور فزال أمرهم جزاءً وفاقاً على ما اقترفوا في حق الأندلس من إلغاء الخلافة طمعاً في الرياسة .

ويطول الأمر لو مضينا نتحدث عن بقية ملوك الطوائف فهم كثيرون ، وكلهم على هذه الشاكلة خُلُقاً وتصرفاً ، ففي غرناطة مثلاً انفرد بالسلطان بنو زييري ابن زاوي ، وأنشأ ماكسن بن زييري إمارة بربرية وخلفه عليها حفيده الأمير أبو عبدالله الزييري وكان أميراً مستضعفاً لا شخصية له حتى عزله يوسف بن تاشفين ونفاه إلى المغرب ، وفي منفاه كتب مذكراته وهي من الوثائق التاريخية النادرة ، فهي مذكرات صريحة بسيطة تكشف لنا عن حقائق الحياة في داخل هذه الإمارة البربرية ، ومنها نتبيّن سوء الحال وإسراف الجد وهو ماكسن بن زييري في الشراب ، حتى كان لا يفريق كما يقول حفيده ، ومن خلال هذه المذكرات أيضاً نرى سلطات نساء القصر واستبدادهن بالأمور .

ونذكر إلى جانب هذه الإمارة إمارة بنى صمادح أصحاب المرية وكانوا من نفس طراز بنى عبّاد أنانية وتخاذلاً ، وبنى الأفطس أصحاب بطليوس وآخرهم المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، وكان هذا الرجل من أكثر الناس تهافتاً على ملوك النصارى ، فاشتد طمعهم فيه وأخذ ألفونسو السادس يدبر للاستيلاء على بطليوس ، كما استولى على طليطة ، وهنا فقط فكر بنو الأفطس في أن يستعينوا بالمرابطين على رغمهم .

تدخل المرابطين :

ولو أن الأمور تُركت على هذا النحو لضاع الأندلس كُله قبل نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فقد شرهت نفوس ملوك النصارى إلى بلاد المسلمين ، ومضى كل منهم يقتطع من أراضيهم ما يستطيع حتى كبار فرسان النصارى من أمثال البرهانس والسيد القمبيطور تسلطوا على نواح من

بلاد الإسلام وسادوها وأذاقوا أهلها الويلات ، ومهما يقال في اهتمام ملوك الطوائف بالعلوم أو بالشعر ، فإن ذلك لا يغفر لهم ، وما الذى يستفيدة الإسلام من عناية رجل مثل المعتمد بن عباد بالشعر ورعايته لشعراء أمجاد من أمثال ابن عمار وابن عبدون وابن خفاجة إذا كانت النتيجة أن بلاد الإسلام والعروبة نفسها ستضيع ، ولا يبقى فيها من يقرأ هذا الشعر؟!

كان عصراً أليماً حزيناً تصرف فيه أولو الأمر في الأندلس تصرفاً لا يتفق بحال على ما عُرف من عزة الأندلس أيام بنى أمية . ولقد كان تسلط أولئك الأمراء على رعاياهم وإلحاحهم عليهم بالمظالم والمغارم من أسباب فقر البلاد ونزوح الناس عن المزارع ، لأن أهل القرى لم يعودوا يجدون من يحميهم فتركوا قراهم وتحصنوا داخل أسوار المدن ، ومعنى ذلك أنه عندما انتهى عصر ملوك الطوائف وأقبل المرابطون كان أمراء الطوائف قد أفقروا البلاد وأضعفوها وذهبوا برخائهم وضيعوا معظم أراضيها . ولم يكن تدخل المرابطين مصادفة ، فقد ذكرنا أن المتوكل بن الأفطس وجد نفسه مضطراً إلى الاستعانة بالمرابطين وكان أمرهم قد استقر في المغرب الأقصى كله ، واتجه يوسف بن تاشفين إلى ضم المغرب الأوسط وهنا وصل وفد من فقهاء الأندلس مرسلاً من الأمراء يستغيث به ، وكانت نفس يوسف بن تاشفين مشرئبة إلى الجهاد ، فعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الأول في ربيع الأول ٤٧٩هـ / يوليو ١٠٨٦م وانضمت إليه قوات من إشبيلية ومن غرناطة ، أما بنو الأفطس أصحاب بطليوس - وهم الذين كانوا مهددين رأساً - فلم يرسلوا معونة كأنهم خافوا أن ينتزع المرابطون منهم البلاد، وربما كان أحسنهم نفساً الأمير عبدالله الزيرى صاحب غرناطة ، فقال في مذكراته المسماة بالتبيان : «لقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس في جريشة ولقينا من كرمه وتحفیه بنا ما زادنا به رغبة ، ولو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً عن أموالنا لفعلنا» .

وكانت وجهة يوسف بن تاشفين بطليوس ، وفي مروره بإشبيلية انضم إليه المعتمد بن عباد بقواته ، ثم اضطر المتوكل بن الأفطس إلى اللحاق بهم وتكاملت أعداد المسلمين وصدقت نيتهم على الجهاد بفضل قيادة يوسف بن تاشفين .

وعندما سمع ألفونسو السادس بأنباء نزول المرابطين رفع الحصار عن

سرقسطة ، وكَاتَبَ ملكَ أرغون ، وهو سانشو بن راميروت وطلب نجدات من فرنسا وإيطاليا وسار في أعدادٍ ضخمةٍ وعلى مقدمته الفارس « البرهانس » .

وكان اللقاء في فحص الزلاقة قرب مدينة بطليوس ، في صباح الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م وكانت طلائع المسلمين بقيادة المعتمد بن عباد ، وقد أبلى هذا الرجل بلاءً جميلاً في تلك المعركة كَفَّرَ به عن بعض ذنوبه ، ثم انقضت جموع المرابطين على قوات النصارى فأبادت معظمها ، وانتهى ذلك اليوم بنصر حاسم للمسلمين ، كانت نتيجته توقّف تقدّم النصارى وثبات حدود الإسلام على ما وجدها عليه يوسف بن تاشفين .

وقد عبر يوسف بن تاشفين مرّةً ثانيةً بعد ذلك ، وكانت وجهته حصناً يسمى لاييط Aledo وهنا تبين تخاذل أمراء الطوائف فاستقر رأيه على عزلهم وذلك هو الذى حدث عندما عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في رجب ٤٨٣ هـ / سبتمبر ١٠٩٠ م فقد عزلهم يوسف بن تاشفين جميعاً ووحّد بلاد الأندلس فيما عدا إمارة سرقسطة التى وجد يوسف بن تاشفين الأيزعج أصحابها لأنهم محاصرون بالنصارى من كل ناحية ، وقد خاف أنه إذا فعل شيئاً أن يسلموا بلادهم للنصارى فتركهم على حالهم ، وبذلك انتهى عهد الطوائف وبدأ عصر المرابطين في الأندلس .

جهاد المرابطين في الأندلس :

منذ أن كسب المرابطون موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م إلى زوال دولتهم الذى يُورِّخ له عادة بسنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م وهى السنة التى توفى فيها تاشفين بن على ثالث أمراء المرابطين عند وهران ، ظل المرابطون قائمين بالدفاع عن الإسلام في الجزيرة الأندلسية ، وعلى الرغم من مسئولياتهم الجسيمة في المغربين الأقصى والأوسط ، فإن الدفاع عن الإسلام في الأندلس كان عملهم الرئيسى ، ففيه أنفقوا معظم أموالهم وفيه جاهدوا واستشهدوا خيرة رجالهم من أمثال أبى عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين أخى أمير المسلمين يوسف بن

تاشفين الذى يعرف « بابن عائشة » أو ابن « تعيشت » ومعناه ابن عائشة ، لأن المرابطين كما ذكرنا ، كانوا ينسبون الرجال فى أحيان كثيرة إلى أمهاتهم نظراً لأنهم كانوا يعدّون الزوجات وكل زوجة تريد أن تسمى ابنها محمداً أو عبد الله ، فكانوا يميّزون الابن عن أخيه بنسبته إلى أمه ، وأبو عبد الله هذا هو الذى تولى الجهاد فى شرق الأندلس واشترك فى معركة أقليمس سنة ٥٠١ هـ ، وقد أصيب هذا الرجل فى عينيه عقب وقعة عنيفة مع جيوش أرغون فى موضع يسمى « البرد » ، Congost de Martorell سنة ٥٠٨ هـ ، وأبو محمد عبد الله بن فاطمة ، وهو الذى استنقذ بلنسية من يد النصارى بعد وفاة السيد القمبيطور بمعاونة قائد المرابطين مزدلى ابن سلنكان فى سنة ٤٩٥ هـ ، ثم غزا طليطلة وطلبيرة ، وتولى بلنسية وشرق الأندلس ، واشترك كذلك فى معركة أقليمس ، وختم حياته عاملاً على إشبيلية حيث توفى سنة ٥١١ هـ وخلفه فى الجهاد ابنه محمد بن مزدلى بن سلنكان الذى تولى الجهاد فى الأندلس زمناً طويلاً وفيه استشهد ، وكذلك تميم بن يوسف بن تاشفين أخو أمير المسلمين على بن يوسف ، وغيرهم كثيرون ممن دفعوا حياتهم دفاعاً فى سبيل الإسلام الأندلسى .

ومن سيئ المصادفات أن القرن الهجرى الخامس / الحادى عشر الميلادى حفل بالكبار من ملوك إسبانيا النصرانية ، الذين كرسوا أنفسهم لحرب المسلمين مستغلين فرصة ضعف ملوك الطوائف ، وما كسبوه من المسلمين نتيجة لسوء تصرف أولئك الأمراء من أمثال ألفونسو السادس ملك أرغون وهو الذى استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥ م ثم انتصر عليه يوسف بن تاشفين فى معركة الزلاقة . وقد توفى هذا الملك بعد وقعة أقليمس التى سنذكرها فيما بعد بقليل ، وألفونسو الأول ملك أرغون الملقب بالمحارب (١١٠٤ - ١١٣٤ م) وهو الذى تغلب على سرقسطة وانتزعها من أيدي بنى هود سنة ١١١٨ م ، وقد سبق أن ذكرنا أن المرابطين تركوا سرقسطة لبنى هود ظناً منهم أنهم يحسنون الدفاع عنها . وكذلك رامون بيرنجير الرابع كونت قطلونية وهو الذى استولى فيما بين سنتي ١١٤٨ - ١١٤٩ م على طرطوشة ولاردة ، وضمّهما إلى بلاده ، ومع أن أولئك الملوك النصارى قد تضاعفت ثرواتهم وقواهم العسكرية واستعانوا بالبابوية وببلاد غرب أوروبا المسيحية ، إلا أن المرابطين عرفوا كيف يثبتون لهم ، ويوقفون التقدم

النصراني ، ولولاهم لضاع الأندلس قبل نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كما ذكرنا .

وقد كسب المرابطون انتصارات كبرى فى الأندلس إلى جانب معركة الزلاقة ، نذكر من بينها معركة أقليمش فى شوال ٥٠١هـ / مايو ١١٠٨م وقد استولوا فيها على شنتبرية القريبة من طليطلة ، ثم حاصروا حصن أقليمش شرقى طليطلة وأرسل إليهم ألفونسو السادس جيشاً جعل فيه خيرة قواده حتى سميت المعركة بمعركة الأكناد السبعة ، وجعل فى الجيش ابنه الوحيد شانجو ولى العهد ، وقد انتصر الموحدون فى تلك المعركة وقتل فيها ولى العهد ، ولم يلبث ألفونسو السادس أن توفى متأثراً بفقد ولده فى أواخر سنة ٥٠٢هـ / يونيه ١١٠٩م .

وفى سنة ٥٠٣هـ نجد جيشاً مرابطاً كبيراً يغزو أراضى طليطلة للمرة الثانية ويستولى مرة أخرى على طليطلة .

وفى سنة ٥٠٩هـ / ١١١٦م يتمكن المرابطون من استعادة الجزائر الشرقية وهى ميورقة ومنورقة ويابسة ، وهى المعروفة بالبليار ، من رجال الجمهوريات الإيطالية وهى بيشة وجنوة الذين انضم إليهم رجال من كونتينة برشلونة ، وكان الذى تولى استرجاع هذه الجزر هو صاحب البحر أى أمير البحر المرابطى أبو عبد الله محمد بن ميمون الذى يعتبر من أبطال الجهاد الإسلاميين فى البحر فى عصرى المرابطين والموحدين . وكان استرجاع هذه الجزر ذا أثر بعيد فى مستقبل الأندلس كلها ، لأنها لو بقيت فى أيدي النصراني لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله .

ولا يمنع ذلك من القول بأنه دارت على المسلمين خلال ذلك العصر بعض الهزائم الأسيفة من أمثال وقية « كتندة » (ربيع الأول ٥١٤هـ / يونيه ١١٢٠م) وقد كان يقود المسلمين فيها أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أخو على ابن يوسف . وكتندة تقع فى حيز مدينة « داروقة » من أعمال سرقسطة ، وقد استشهد فيها من المسلمين ألفوف ، لأن الأندلسيين الذين خرجوا للجهاد مع المرابطين لم ينتظموا فى الصفوف وتسارعوا فى الهجوم على العدو فاقتل مصافئ الجيش فكانت الهزيمة ، وقد مات فيها نفرٌ من كبار علماء الأندلس ، نذكر منهم أبا على الصدى المعروف بابن سكره (٤٥٢ / ٥١٤هـ) وكان من أكبر علماء

الأندلس وقد ألف عنه ابن الأبار (أبو عبد الله محمد القضاة) كتاباً من أحسن الكتب وهو المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي .

ومن الأحداث الجديرة بالذكر في الأندلس خلال العصر المرابطي ما وقع من خيانة نفر من المعاهدين من نصارى الأندلس للمسلمين واستدعائهم للملك ألفونسو الأول الملقب بالمحارب ملك أرغون ، ومعاونته على اختراق بلاد المسلمين من الشمال إلى الجنوب والعيش في نواحيها خلال سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م وكانت نتيجة ذلك أن طلب الفقيه أبو الوليد بن رشد الفيلسوف إلى علي بن يوسف بضرورة اتخاذ قرار بشأن أولئك المعاهدين الذين كانوا سبباً في تلك الكارثة ، فنفى علي بن يوسف الكثيرين منهم إلى بلاد المغرب ، وقد بالغ بعض مؤرخي إسبانيا في الحملة على المرابطين لهذا السبب ولكن الحقيقة أن الذين نفوا كانوا عدداً قليلاً .

ونختم هذا الكلام عن جهاد المرابطين في الأندلس بالكلام عن وقعة أفرغة جنوب غربى لاردة في الثغر الأعلى الأندلسي سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م ، وقد قاد المسلمين فيها أبو زكريا يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية ، والذي يعتبر من أكبر قادة المرابطين وهو جد بنى غانية الذين قادوا فتنة كبيرة على الموحدين في الجزائر الشرقية وبلاد أفريقية ، وقد انتصر يحيى بن غانية في تلك المعركة على ألفونسو المحارب نصراً كبيراً خلد ذكره وقفز به إلى الصفوف الأولى من صفوف قادة المرابطين .

نهاية المرابطين في الأندلس :

وبينما كان المرابطون ماضين في جهادهم ضد النصارى في الأندلس ويعاملين على بناء المغرب الإسلامي ، قامت عليهم ثورة المصامدة يقودهم فيها محمد بن تومرت منشئ دولة الموحدين . وقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على المرابطين فيما أوردنا في تاريخ المغرب ، أن محمد بن تومرت قاد ضد المرابطين ثورة ظالمة ، وحال بينهم وبين إكمال رسالتهم ، لأن هذه الفئة المجاهدة من المسلمين لم تكن تستحق هذا الانقلاب العنيف الذي قام به ابن تومرت عليهم ، فقصف عُمر دولتهم وهي في عنفوان عملها وجهادها ، وأسوأ نتائج قيام محمد بن تومرت بهذه

الحملة على المرابطين هو أن الجهاد توقف في الأندلس ، وبعد أن كان المرابطون يكسبون النصر تلو النصر ويستعيدون ما ضاع من بلاد المسلمين مثل بلنسية ، بدأت الهزائم تتوالى عليهم لأنهم اضطروا إلى سحب قواتهم من الأندلس فسقطت سرقسطة في أيدي ألفونسو المحارب ملك أرغون سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، ثم سقطت المرية في يد رجال جنوة وبيشة سنة ٥٤٢هـ (وقد استعادها الموحدون بعد ذلك) ، وفي شوال سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م سقطت طرطوشة في يد رامون بيرنجير الرابع كونت قطلونية ، وفي العام التالي سقطت لاردة بخيانة أندلسي من الذين قاموا على المرابطين ، وهو محمد بن سعد بن مردنيش وكان ذلك سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م وكان يعاونه في ذلك صهره إبراهيم بن هامشك وهذان الرجلان: ابن مردانيش وابن همشك مسئولان إلى حد بعيد عما أصاب الإسلام في شرق الأندلس في أواخر العصر المرابطي وخلال العصر الموحدى . وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ثالث أمراء المرابطين في ٢٧ رمضان ٥٣٧هـ / ١١٤٥م توالى سقوط العواصم الأندلسية في يد النصارى بسبب انشغال المرابطين بالدفاع عن أنفسهم في الأندلس .

وزاد مركز المرابطين تحرجاً في الأندلس قيام نفر من رؤساء النواحي في الأندلس بالثورة عليهم منتهزين فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين . ومن أكبر الثائرين عليهم الذين كان لهم أسوأ الأثر في مصير الأندلس هو القاضى ابن « حمدين » الذى قاد ثورة على المرابطين وطاردهم في قرطبة ، وابن قسى الذى فعل مثل ذلك الفعل في بطليوس . والخلاصة أن المرابطين لقوا من أهل الأندلس شر الجزاء على ما فعلوا في سبيل إنقاذ الإسلام الأندلسى . وإن الإنسان ليتعجب من أمر أولئك الأندلسيين الذين لم يحسنوا الانتفاع بالفرصة التى أتاحت لهم من تكريس المرابطين أنفسهم للدفاع عن الأندلس ، بل أخذوا يتندرون بهم ويتعالون عليهم حاسبين أنفسهم أعلى حضارة وأرقى جنساً من أولئك الأفارقة ، فكانت النتيجة أن أضاعوا أنفسهم وبلادهم ، لأن الموحدين عندما يخلفون المرابطين ويحلون محلهم في الجهاد في الأندلس لم يسدوا مسداهم قط ، وفي أيامهم انهارت خطوط الدفاع الأندلسى فلم يبق للمسلمين في الأندلس في نهاية عصر الموحدين إلا مملكة غرناطة .

الموحدون في الأندلس :

بعد أن تم للموحدين القضاء على المرابطين في شوال ٥٤١ هـ بمقتل أبي إسحق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، اتجهت همة عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين إلى ضم ما بقى للمسلمين في الأندلس إلى دولته ، وقد بدأ بذلك في وقت مبكر ، لأن الكثيرين من زعماء نواحي الأندلس عندما بلغهم خبر قيام الموحدين على المرابطين قاموا على المرابطين في نواحيهم كما ذكرنا . فكان ذلك دافعاً لعبد المؤمن للعبور إلى الأندلس بعد أن تم له بسط سلطانه على نواحي المغرب الأقصى ، وبعد أن استطاع توحيد المغرب كله إلى قفصة وطرابلس سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م التي تسمى في المغرب بسنة الأخماس ، ففي نهاية تلك السنة عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس واستقر في إشبيلية وضم إلى ملكه ما بقى للمسلمين في شبه الجزيرة ، وكانت حدوده تمر شمال نهر الوادي الكبير وتبدأ في الغرب عند الأشبونة ، وتنتهي في الشرق عند مرسية .

وقد وضع عبد المؤمن بن علي نظاماً لا بأس به للدفاع عن الأندلس فجعل عاصمته قرطبة بعد أن كانت إشبيلية في أيام المرابطين ، وقد عاد الموحدون إلى إشبيلية بعد ذلك ، ولكن قرطبة اعتبرت المركز العسكري ، وأقام عبد المؤمن على قواعد الأندلس ولاة من رجال بيته الملقبين بالسادة والفرد سيد وهذا هو اللقب الذي كان يطلق على أفراد البيت الموحدى .

وقد تمكن عبد المؤمن بن علي قبل موته من توحيد معظم ما بقى من الأندلس تحت رايته ، ولم يخرج عن طاعته الا بنو غانية الذين تولوا أمر « دانية » أولاً ، ولم يستطع الموحدون الاتفاق معهم فعبروا إلى الجزائر الشرقية وهناك قامت ثورتهم التي سيطول أمرها .

كذلك رفض الطاعة للموحدين محمد بن سعد بن مردانيش رئيس مرسية وصهر ابراهيم بن همشك وكانا يستعينان بالنصارى على المسلمين ولكن الموحدين تمكنوا من الانتصار على محمد بن سعد بن مردانيش في موقعة فحص الجلاب مما أدى إلى انضمام بنى مردانيش إلى الموحدين أيام أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين .

وفي أواخر أيام عبد المؤمن بن علي انتهز ألفونسو أنريكي Alfonso Enrique ملك البرتغال الذي تسميه مراجعنا بابن الرنق الفرصة لكي يوسع ملكه على حساب المسلمين في غرب الأندلس ، وكانت إمارة البرتغال حديثة الانفصال عن قشتالة ، وكان أمراؤها يحاولون أن يوسعوا ملكهم ، وكان غرب الأندلس مجال توسعهم ، ولهذا فبينما كان شرق الأندلس هو ميدان النشاط الكبير للمجاهدين المرابطين ، كان غرب الأندلس مجال نشاط الموحدين في الأندلس، ففي سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٨م حاول ألفونسو أنريكي الاستيلاء على الأشبونة فلم يستطع ، ولكنه استعان بنفر من الصليبيين الانجليز والالمان والهولنديين الذين كانوا ذاهبين للحرب في المشرق وأغراهم بمعاونته في الاستيلاء على قصر أبي دانس وشلب ، وقد تمكن الموحدون من استعادة شلب ، أما قصر أبي دانس وكانت من أكبر حصون الإسلام في الأندلس فلم تعد إلى الإسلام بعد ذلك ، وبعد ذلك بقليل استولى البرتغاليون على شنترين .

هنا تنبّه الموحدون إلى ضرورة القيام بعمل حاسم في الأندلس ، فاستقر رأى أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين على أن يقوم بعمل حاسم غرب الأندلس ، وبالفعل حاول سنة ٥٨٠هـ أن يستعيد شنترين شمال شرقي لشبونة ، وكاد يستولى عليها لولا أنه أصيب بمرض مفاجئ فرفع الحصار ولم يلبث أن توفي في ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ / يوليو ١١٨٤م وخلفه أكبر أبنائه أبو يوسف يعقوب الذي تلقب بالمنصور ، والذي يعتبر أكبر شخصية في تاريخ الموحدين بعد محمد ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي .

وقد قرر هذا الخليفة الموحدي أن يقوم بحملة كبرى على الأندلس ، فعبر سنة ٥٨٦هـ واستعاد شلب ، وحاول استعادة قصر أبي دانس ثم عاد إلى إشبيلية . وفي سنة ١١٥٧م توفي ألفونسو السابع ملك قشتالة وبعد حرب أهلية على العرش تولى أمر مملكة قشتالة وليون الفونسو الثامن الذي بدأ فعقد صلحا مع الموحدين سنة ٥٨٦هـ وعندما انتهت مدة هذا الصلح ٥٩٠هـ / ١١٩٤م بدأ بمهاجمة أراضي المسلمين فعبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس في جيش ضخم سنة ٥٩١م وكانت وجهته الحقيقية طليطلة ، ولكن ألفونسو الثامن عجل بالسير نحوه ، وكان أبو يوسف يعقوب قد احتشد احتشادا عظيما لتلك الحملة ، فأخذ معه خير مقاتلي

الموحدين وضم إليهم أحسن مقاتلي الأندلس ، وبعث في نفوس رجاله حماساً دينياً عظيماً ، وخافه ألفونسو الثامن ، فاستعان بالبابوية وبملوك إسبانيا النصرانية وسار في جيش ضخم من قلعة رباح ، وعسكر عند حصن يسمى الأرك في نهاية الطريق المؤدّي من طليطلة إلى قرطبة ، وبدأت المعركة الحاسمة في التاسع من شعبان ٥٩١ هـ / يوليو ١١٩٥ م وقد انجلت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين حُصرت فيه صفوف الإسبان ، وتمكن المسلمون من كسر حدة الموجة النصرانية ، وتعتبر هذه المعركة أختاً لمعركة الزلاقة ، وكان لها أبعاد الأثر في تثبيت جبهة الإسلام الأندلسي لمدة قرن كامل من الزمان على الأقل .

وبعد معركة الأرك عاد المنصور إلى إشبيلية وأخذ ينظم أمور الأندلس وشرع في إكمال مسجدها الجامع الذي اشتهر بمئذنته الباقية إلى اليوم وهي المعروفة بالدوارة أو الخيرالدة .

وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين الموحدين والنصارى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م ولكن ألفونسو الثامن ما كان ليسكت على تلك الهزيمة ، فأخذ يعد العدة للقاء ثانٍ مع الموحدين ، وبدأ في ذلك سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م أي قبل انتهاء أجل الهدنة ، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور قد توفى في ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ وخلفه ابنه محمد الملقب بالناصر لدين الله ولم تكن له كفاءة أبيه ، وعرف ذلك ألفونسو الثامن فقرر أن يستفيد من تلك الفرصة ، وجمع جيشاً ضخماً وسار قاصداً بلاد المسلمين . وعبر أبو عبد الله محمد الناصر خليفة الموحدين في ذي الحجة سنة ٥٠٧ هـ / ١٢١١ م واتجه نحو بلدة « شلبطرة » فاستولى عليها سنة ٦٠٨ هـ وكانت تقع جنوب قلعة رباح إلى الشمال الشرقي من قرطبة .

وقد خاف ألفونسو الثامن من أن يُمنى بهزيمة ثانية ، فاستجاش بالبابوية وبملوك غرب أوروبا واستنصر أهل إسبانيا النصرانية فجمع جيشاً ضخماً سار للقاء المسلمين به ، وعجل محمد الناصر فجمع جيشاً حافلاً وسار به إلى الأندلس فنزل إشبيلية ، ومن هناك اتجه إلى جيانى ثم صعد شمال الوادى الكبير وعسكر في سهل كثير التلال الصغيرة التى تسمى بالعقاب (جمع عقبة) وأقبل النصارى فعسكروا على هضبة عالية تعرف بهضبة الملك مشرفة على معسكر المسلمين .

وقبيل اللقاء استولى النصارى على قلعة رباح من يد قائدها الأندلسى « أبو محمد بن قادس » وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر محمد الناصر سارع الناصرُ بقتله دون تحقيق ، فثارت نفوس الأندلسيين وأزمعوا الانخزال عن الجيش الإسلامى أثناء المعركة .

وحدث ذلك بالفعل ، فى الخامس عشر من صفر ٦٠٩ هـ / ١٦ يوليو ١٢١٢ م وقع اللقاء الحاسم ، وبعد قليل من الصراع انخزل الأندلسيون والعرب تاركين الجناح الشرقى من الجيش الإسلامى مكشوفاً ، فانقض عليهم النصارى وأنزلوا بالمسلمين هزيمة قاصمة قتل فيها عشرات الألوف من المسلمين معظمهم من المجاهدين المتطوعين من أهل الأندلس ، وكذلك حصدت فى المعركة زهرة مقاتلى المغرب وبلغ من ثقل الخسارة أن ابن عذارى المراكشى المؤرخ يحدثنا أن الإنسان كان يجول فى المغرب بعد تلك المعركة فلا يصادف شاباً قادراً على القتال .

المهم لدينا أن تلك المعركة كانت قاصمة الظهر بالنسبة لمستقبل الأندلس فقد تضععت جبهة الوادى الكبير وسقطت مدن كبرى مثل بياسة وأبدة وأصبح النصارى يشرفون مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم خط الوادى الكبير ، وفى ظلال هذه الهزيمة توفى محمد الناصر فى شعبان سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م وبعد وفاته بدأ الخلاف المؤسف يدب فى صفوف البيت الموحدى وانعكس ذلك على الأندلس ، فبدأت تصفية ما بقى للمسلمين فى خلال بقية العصر الموحدى ولم تبق إلا مملكة غرناطة .

وفى كلامنا عن الموحدين فى القسم الخاص بالمغرب من هذا الكتاب تكلمنا على بقية تاريخ هذه الدولة فى المغرب والأندلس ، ولهذا فإننا ننتقل الآن للكلام على دولة بنى نصر المعروفين ببنى الأحمر فى غرناطة .
